الخاتمة

تطورت الحياة فى العصر العباسى الأول تطوراً كبيراً فرقها عن الحياة الجاهلية والأموية مفارق واسعة ، إذ استقر العرب وأترفوا فى مساكنهم ومآكلهم ومشاربهم ؛ وغذت عقولهم الثقافات الأجنبية التى نقلت إلى العربية ، مما أعد لتطور المقدمات تطوراً اتخذ مظهرين مختلفين : فهم من ناحية لم يجدوا بدًّا من التمسك بالأشكال الموروثة من المقدمات مثل المقدمة الطللية ، والمقدمة الغزلية ، ومقدمة وصف الظعن ، ومقدمة وصف الطيف ، ومقدمة الشباب والشيب ، لأن اللغويين والنحويين والبلاغيين كانوا يحضونهم على التشبث بها والحرص عليها ، وكانوا يحكمون لهم أو عليهم لدى الخلفاء والممدوحين ، وكان من ينوهون باسمه يطير فى الآفاق وتساق إليه الصلات والهبات ، أما من لا يستحسنون قصائده لأنه لم يراع فى صنعها النماذج القديمة ، فكان يخمل ذكره ، وتقل جائزته ويصبح مغموراً مهملا . ولكنهم لم يثبتوا فى تلك القوالب كل المقومات والتقاليد الجاهلية ، بل حافظوا على ما تلاءم منها مع أذواقهم المرهفة وبيئتهم المتحضرة المترفة ، وأسقطوا ما لم ينسجم مع حياتهم ، وخير مثال على ذلك المقدمة الطللية التى حذفوا منها بعض العناصر البدوية والمناظر الصحراوية .

وهم من ناحية ثانية استهلوا بعض قصائدهم بمقدمتين جديدتين هما : المقدمة الخمرية التى نهض الأخطل بها ، والتى دعا أبو نواس بقوة لها ، ودعم دعوته النظرية لها بافتتاحه لغير قليل من مطولاته بوصف الخمر . ونحا نحوه غير شاعر سواء فى مشاركته فى حمل لواء دعوته نظريًّا أو فى تطبيقها تطبيقًا عمليًّا . أما المقدمة الثانية الجديدة فهى مقدمة وصف مظاهر الطبيعة التى ابتدعها أبو تمام لهذا العصر ، ولم يزل يفتتح قصائده بها حتى أصلها فى صدورها وأرسى مقوماتها وتقاليدها .

ولم ينبئ ما نقل إلينا من ديوان بشار بأنه استهل مطولاته بالألوان المستحدثة من المقدمات كثيراً ، بل أنبأ بأنه ظل يفتتح أغلبها بالأشكال القديمة ، وخاصة المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية . وأولاهما أقل انتشاراً من أخراهما ، كما أنه حذف بعض التقاليد البدوية التى أرساها الشعراء الجاهليون ورددها الشعراء الأمويون ، مثل

بقايا الديار وما غيّرها وما نزل بها ، ووضع مكانها عناصر حضارية مثل وصفه لمظاهر الحياة التى دبت فى المنازل بعد سقوط الأمطار عليها من أزهار وخضرة . وأضاف إلى التشبيهات الجاهلية تشبيهات جديدة فى أثناء ذكره لمعالم الديار مستمداً بعضها من الشعراء الأمويين . ولم ينشر فى المقدمة الغزلية عبثه وانحرافه اللذين عرفا عنه ، بل كان فى بعضها أقرب إلى الشعراء العذريين . وعبر فى قسم منها عن تحلله وتنصله مما رمى به من المجون والتعهر . وقدم لقصائد غيرها إما بمقدمة الشباب والشيب التى استعاد فيها أيامه الماضية بما طوى فيها من صولات وجولات تتمثل فى تعقبه للنساء ومعاقرته للخمر ، وإما بمقدمة وصف الظعن ومقدمة الطيف اللتين لم يتمسك فيهما تمسكاً شديداً بالتقاليد البدوية ، ولا حرص على رسم لوحات مفصلة لهما ، كما أنه بدأ يتحول بمقدمة وصف الظعن من العناية بتصوير مناظر التحمل والارتجال إلى العناية بالمعانى التى يثيرها الفراق والوداع فى نفسه .

ولم يقف تجديده على إسقاط العناصر البدوية والمظاهر الصحراوية من المقدمة الطللية فحسب ، بل جدد كذلك فى مجالين آخرين : جدد فى القسم الذى كان يلى المقدمات التقليدية على اختلافها ، والذى كان يتصل بموضوعات قصائدها ، وخاصة وصف الصحراء ورحلته فيها وناقته التى حملته إلى الممدوح ، فإنه عدل عن ذلك مراراً إلى وصف رحلته إلى الممدوح فى السفن . وحاول تصدير قصائده بأشكال مستحدثة من المقدمات من مثل المقدمة الخمرية ومقدمة الحكمة . أما المقدمة الأولى فلم يفتتح قصائده كثيراً بها ، ولا أفاض فى وصف مجالس الخمر وكؤوسها وأباريقها وسقاتها وقيانها ، بل أوجز فى ذلك كله إيجازاً شديداً . وأما مقدمة الحكمة فقد يكون استهل بها بعض مطولاته التى ضاعت ولم تصل إلينا . فإن ما بقى من قصائده يدل على أنه استكثر من الحديث عن الصداقة والصديق فى تضاعيف مقدماته التقليدية ، كما يدل على أنه قدم لقليل من قصائده بالحكمة والحديث عن الدهر .

والراجح أن أبا نواس حين هاجم الأطلال ودعا إلى الاستغناء عن وصفها فى صدور القصائد وتصوير الخمر مكانها لم يصدر فى ذلك عن دافع شعوبى ، وإنما صدر فيه عن دافع حضارى لا صلة بينه وبين الشعوبية فى شىء . فقد رأى الشعراء الجاهليين يفتتحون مطولاتهم بوصف الأطلال التى كانوا يترددون عليها ويعيشون

بينها ، والتى كانت مرتبطة أوثق الارتباط بحياتهم الاجتماعية وبيئتهم الحضارية . ولم يتسلموهم فى ذلك ، بل اتخذ وصفهم لها وارتباطها بحياتهم وبيئتهم وسيلة إلى الدعوة للتخلى عنها فى العصر العباسى الذى تختلف الحياة والبيئة فيه اختلافاً بيناً عن الحياة والبيئة فى الجاهلية . وهى ظاهرة لم ينفرد بها وحده ، بل انضم إليه شعراء كثيرون مستشعرين نفس الدوافع التى استشعرها ، ومنادين بما نادى به ، منهم مسلم ابن الوليد ، وأشجع السلمى ، وأبو العتاهية ، وأبان بن عبد الحميد ، والعكوك ، وديك الجن الحمصى ، مما يؤكد أن الدعوة نظرياً وعملياً كانت عامة ، وأنها لم تكن تنبع من المنابع الشعوبية .

ولم يدع مهاجمته لوصف الأطلال إلا فى فواتح خمرياته ، أما قصائده التقليدية فكان يمهد لها بوصف الأطلال ، بل إن وصفها شغل الحيز الأكبر من صدورها . وهو وصف حافظ فيه على الرسوم الثابتة ، كما استحدث فيه بعض المعانى والصور المبتكرة . ولم يستكثر من استهلال مطولاته بالمقدمة الغزلية ، بل أقل منها . ولم يعلن بطالته ومجانته فيها ، بل كرر المعانى العذرية العفيفة بها . وتلقانا فى ديوانه مقدمات أخرى تقليدية منها مقدمة الشباب والشيب ومقدمة وصف الرحيل التى عنى فيها بتصوير رحلته هو إلى الممدوح . أما المقدمة الأولى فلم يكثر منها ولا أحدث تغييرات واسعة فى مضمونها ، بل ردد معانيها المعهودة المعروفة . وبجانب المقدمات التقليدية فى ديوانه ألوان غيرها حديثة . فقد استهل بعض قصائده بوصف الخمر ، أو بوصف الحُرّاقات ، أو بالحنين إلى الوطن ، وبذلك يختلف عن بشار فى أنه استكثر من افتتاح مطولاته بمقدمات جديدة .

وعلى هذا النحو كانت مقدمات مسلم بن الوليد ، إذ منها القديم ، ومنها الجديد ، كما يتعانق التقليد والتجديد فى الأشكال الموروثة منها . آية ذلك أنه افتتح جانباً من قصائده بالمقدمة الطللية ، والمقدمة الغزلية ، ومقدمة الشباب والشيب ، ومقدمة الفراق والوداع المتطورة عن مقدمة وصف الظعن ، ومقدمة وصف الطيف . ولم يحرص فيها على الأصول الثابتة ، والتقاليد المستقرة ، بل أهمل فيها كثيراً من المظاهر البدوية التى لم تعد تتفق مع حياته المتحضرة ، وخاصة المقدمة الطللية التى سبقه بشار وأبو نواس إلى الحذف منها . وأمعن أيضاً فى تضمينها — على تنوعها — تصويره لمتعه

وملاهيه التى أفاض فى الحديث عنها ، والتى كانت مجالس الخمر والغناء أساسها ومادتها ، حتى ليطالعنا وصفه للخمر فى أكثرها . ومضى يتابع بشاراً فى تجديده ، واصفاً رحلته إلى الممدوح فى البحر على السفن الضخام . وذلك مظهر من مظاهر تجديده فى الأشكال القديمة من المقدمات ، غير أن لتجديده مظهراً آخر ، وهو استهلاله لبعض مدائحه بالمقدمة الخمرية .

واختلف أبو تمام فى تجديده فى مقدمات قصائده عن أبى نواس ومسلم ، لأنه أعرض عن المقدمة الخمرية التى فتنا بها ، ومال نحو الطبيعة ومباهجها ، وأخذ يقدم لغير مدحة من مدائحه بوصف مناظر الطبيعة وأزهارها وأنوارها وأطيارها مشيعاً فى وصفه لها أروع الصور ، ناثراً فيها كثيراً من أدوات البديع من جناس وطباق ومشاكلة ، مع التعمق فى الفكرة ، والتدقيق فى الصورة .

وقام عمله فى الأشكال الموروثة من المقدمات على بعثها والتحوير فيها والاختراع فى معانيها ، فقد نهض بمقدمة الفروسية نهضة أعادت لها حياتها من ناحية ، ومن ناحية ثانية أدار الحوار فيها بينه وبين زوجه لا حول إتلاف الأموال وإنفاقها فى غير طائل ، ولا حول الاستهانة بالحياة ، بل حول مطامحه الشخصية ، وآماله العريضة التى لا تنتهى عند حد ، والتى كان يسعى من أجل تحقيقها . كذلك استهل قسماً كبيراً من مدائحه بالمقدمة الطللية ، وبسواها من المقدمات التقليدية ، كالمقدمة الغزلية ، ومقدمة الشباب . والشيب ، ومقدمة الفراق والوداع ، ومقدمة وصف الطيف ، وكان فى أغلبها ميالاً إلى التجديد والتوليد فى المعانى والصور ، معتمداً كل الاعتماد على أدوات البديع .